

سلسلة منازل الإيمان (1)

منزلة اليقظة



إعداد وتقديم
لجنة خدمة التراث

مؤسسة فريد الأنصاري للأبحاث والدراسات
العنوان : زنقة سيناء رقم 14 الرياض مكناس المغرب
رقم الهاتف : 0661081636
البريد الإلكتروني :
faridalansari.foundation@gmail.com
Facebook.com/faridalansari.foundation

الكتاب الأول ضمن سلسلة منازل الإيمان

عنوان الكتاب : منزلة اليقظة
الدكتور فريد الأنصاري
إعداد وتقديم : لجنة خدمة التراث
الطبعة : الأول 1437 هـ 2016م
الإيداع القانوني : 2016MO2687
ر د م ك : 978-9954-38-043-7

طبع وتصميم : PETIT COIN DE COM
العنوان : رقم 2 إقامة المنظر الجميل 3 رقم 8 مكناس
البريد الإلكتروني : petitcoindecom@gmail.com
رقم الهاتف : 0661716853 - 0669716099

سلسلة منازل الإيمان (1)

منزلة اليقظة

الدكتور فريد الأنصاري

إعداد وتقديم

لجنة خدمة التراث



إهداء

إلى هدهد الأسحار والأقمار
صاحب المنازل ورسالة الإبصار
من سار متحرقا بالقرآن ومات عن شعلة وانتصار

إلى من تعلم التغريد عند النخيل والأسحار
ثم انطلق يعلم الناس منطق الطير والأقدار
ويسقيهم كؤوس النور، وينزلهم منازل الأخيار

إلى الذي قال:
((موعدي عاد - أدري- لكن أنا اليوم لست أعودُ
لأن النخيل بذاتي عهودٌ على دس دمع الأسى بعد
ألف انتظار فيك يا سجدة الانتصار ...))

تصدير قرآني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ
الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ
رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ۞ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا
مُعْرِضُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۞ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ
قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۞ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ
الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

سورة الأنبياء الآيات 30- 35

المحتويات

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد..

يعتبر كتاب "**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**" من أفضل كتب الإمام ابن قيم الجوزية، لما فيه من تهذيب للنفوس والأخلاق، والتأدب بآداب المتقين الصادقين، فهو كتاب يبحث في السلوك وتزكية النفس، وهو الذي نبه فيه مؤلفه إلى أن كمال الإنسان إنما يكون بالعلم النافع، والعمل الصالح، وبالإقبال على القرآن الكريم وتفهمه وتدبره، واستخراج كنوزه وآثاره، لأنه هو الكفيل وحده بمصالح العباد، في المعاش والمعاد، وهو الموصل لهم إلى سبيل الرشاد.

ونظرا لقيمة هذا الكتاب العلمية والتربوية الكبيرة، فقد اعتنى به الكثير من العلماء، فشرحه جماعة منهم، واختصره آخرون، لذلك سعى الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله، كغيره من العلماء الربانيين،

للإدلاء بدلوه في الحديث عن منازل الايمان، التي تضمنها كتاب مدارج السالكين، توضيحا لها وتفسيرا لمعانيها، من أجل تعميق الإيمان في النفوس، وترسيخ العلم والمعرفة بالله في العقول والقلوب، فشرح ما قدر الله له شرحه في حلقات، سماها (**سلسلة منازل الإيمان**)[1]، حيث كان رحمه الله يفرد كل منزلة بالذكر والتفصيل، بيانا لحقائقها الإيمانية، وخصائصها العمرانية، وشروطها الوجدانية.

ونحن في لجنة خدمة التراث[2]، التابعة لمؤسسة فريد الأنصاري للأبحاث والدراسات[3]، وانطلاقا من رغبتنا القوية في نشر تراث العلماء والعناية به،

1- هذه السلسلة هي عبارة عن دروس ألقاها الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله، في تفسير وشرح منازل الإيمان، التي تضمنها كتاب مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية.

2- واحدة ضمن خمس لجان داخل مؤسسة فريد الأنصاري للأبحاث والدراسات، تهتم بمشروع خدمة تراث العلماء، وقد بدأت بتراث الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله، في أفق الانفتاح على باقي الأعلام الأخرى بحول الله تعالى.

3- تجدون في آخر هذا الكتيب ورقة تعريفية بمؤسسة فريد الأنصاري للأبحاث والدراسات.

وخصوصا العلماء الذين اعتنوا بالقرآن الكريم وعلومه، ونظرا لما قدمه الدكتور فريد الأنصاري، من قيمة مضافة في شرحه لمنازل الإيمان، فقد ارتأينا تقديم هذا العمل الجليل، الذي هو عبارة عن عرض وفي لمضامين كل منزلة، إذ بعد فهمها واستيعابها، عملنا على تحويلها من دروس صوتية إلى مادة مكتوبة[1]، رغبة في إخراجها بالشكل الذي يسهل على القارئ الكريم مطالعتها والاستفادة منها، في شكل كتيب خاص بكل منزلة، نضمنه كل ما جادت به قريحة شيخنا رحمة الله عليه، من هدى منهاجي ومقام رباني، خاص بكل منزلة من هذه المنازل.

أما مضمون الكتيب الذي بين يديك أيها القارئ الكريم؛ فيتحدث عن "**اليقظة**"[2] باعتبارها منزلة من منازل الإيمان، ولكونها من أهم المنازل، ومن أرفع المقامات التي وجب على المؤمن أن يدركها وينتبه

1- مدة الشريط الصوتي، لمنزلة اليقظة، الذي تم رقنه في هذا الكتيب هي 50 دقيقة و16 ثانية.

2- على أننا أضفنا ملحقا في آخر هذا الكتيب، يتعلق بمنزلة اليقظة عند ابن قيم الجوزية إتماما للفائدة.

إليها، فهي أصل السير إلى الله تعالى، وأهم شيء للسالك إليه سبحانه، ولذلك نجد بعض أهل العلم من جعلها من أولى المنازل التي ينبغي البدء بها والاشتغال عليها، لأن الإنسان في حاجة دائمة إليها في سيره إلى الله، ولذلك قال ابن قيم رحمه الله: ((**اليقظة أوّل منازل العبودية**))[1]، وقال قبله الإمام عبد الله الأنصاري الهروي رحمه الله في كتابه "**منازل السائرين**": ((**أول منزلة في السير إلى الله تعالى، منزلة اسمها اليقظة، وهي أصل المنازل، وكل المنازل مبنية على منزلة اليقظة**)).

إننا إذن في رحاب منزلة عظيمة هي "**منزلة اليقظة**"، وفي ظلال كتيب قيم ومفيد، رغم صغر حجمه، وأمام مؤلّف قدير وعالم جليل، غني عن التعريف، يعرفه القاصي والداني، لما خلفه من علم غزير، وفكر منير، وأثر كبير في نفوس طلابه ومحبيه، إنه العلامة الفقيه، العالم الأصولي والخطيب

1- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق عماد عامر، دار الحديث، القاهرة، 2005م: 1/ 105.

المفوه، الزاهد الورع، الأديب الشاعر والروائي المبدع، الشيخ فريد الأنصاري السجلماسي عليه رحمة من الله تعالى.[1]

في هذا الكتيب من "**سلسلة منازل الايمان**"، يأخذنا الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله، في جولة ربانية عجيبة، تبدأ بقصدية اليقظة، ثم يبين لنا علاقتها بالعلم والغربة، ليرشدنا بعد ذلك إلى أهم مسالك هذه المنزلة، وهي التفكر في ملكوت الله تعالى، والتدبر في كلامه سبحانه، ومطالعة نعمه التي لا تعد ولا تحصى، ليكون بذلك قد طرق أبواب القلوب المقفلة، وأيقظها من سباتها، عبر مراتب اليقظة ومسالكها، لأن التفكر من أولى وسائل إيقاظ القلب، ولأن التدبر إعمال الخاطر والوجدان والفكر في مآلات الآيات، وآثارها على النفس والحياة، ولأن مطالعة النعم - تقود من لم يفقد فطرته

1- لم نورد تعريفا خاصا بالشيخ فريد الأنصاري رحمه الله، لأنه غني عن التعريف، ولأن علمه قد وصل لكل مهتم بالقرآن وأهله، ولكل متتبع لرجالات الدعوة والصلاح في كل أقطار البلدان الإسلامية.

السليمة - إلى الرغبة في الشكر والحمد لله سبحانه وتعالى.

وحتى ندرك كيف كان الرسول ﷺ يربي أصحابه على منزلة اليقظة، ويعلمهم كيف يستيقظون ويوقظون، وكيف يطرقون أبواب قلوبهم وقلوب من حولهم حتى لا تكون غافلة نائمة شاردة، كان قصد شيخنا المرور في هذه الجولة الايمانية الربانية، عبر التربية على اليقظة، من خلال جيل القرآن الفريد، الذي استيقظ وأيقظ، واستنار وأنار، ثم فاز برضى الرحيم وجنة الرحمان.

وقبل أن نترك القارئ الكريم، يكتشف بصائر وأنوار هذه المنزلة، ويتلذذ بتذوق ثمارها الإيمانية، لابد من كلمة شكر وتقدير، لكل من أسهم في إخراج هذا الكتيب للوجود، ونخص بالذكر، الأستاذ الدكتور مُحَمَّد البركة[1]، الذي قام بملائمة فحوى كلام

1- أستاذ التاريخ والحضارة بجامعة السلطان سيدي محمد بن عبد الله بفاس، منسق اللجنة العلمية لمؤسسة فريد الأنصاري للأبحاث والدراسات، له عدة مؤلفات حول مشروع الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله، في مجالات التاريخ والدعوة والرواية.

الشيخ رحمه الله، إلى لغة عربية تناسب قدر المستطاع أسلوبه المعهود، بكل أمانة علمية، دون تصرف أو تعديل، بالإضافة إلى وضعه لعناوين جزئية خاصة بهذه المنزلة، تناسب مضمونها، لتسهل على القارئ والمتفحص.

كما أن الشكر والتقدير موصول كذلك لكل أعضاء لجنة خدمة التراث، الذين لم يدخروا جهدا في حفظ وصيانة ما أنتجه علماؤنا الكرام، تقديرا للعلم وخدمة للتراث.

نرجو من الله العلي القدير، أن يكون في نشر هذه المنزلة، ما ينير الطريق، ويوضح المعالم للسالك إلى الله حقا وصدقا، كما نتمنى منه سبحانه، أن نكون قد وفقنا في عملنا هذا. والحمد لله رب العالمين.

لجنة خدمة التراث

مكناسة الزيتون- المغرب

في 08 رمضان 1437 هـ الموافق لـ 14 يونيو 2016 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين، أما بعد:

[قصدية منزلة اليقظة]

فمن منازل إياك نعبد وإياك نستعين هناك منزلة اليقظة، وهي منزلة جعلها بعض أهل العلم أولى المنازل قبل منزلة التوبة، لأن الإنسان لا يتوب إلا إذا كان يقظا، أما النائم الغافي الغافل، فلا يدري حاجته أصلا إلى التوبة أو إلى شيء من ذلك.

صحيح أن هذا المعنى اللطيف الذي ذكره أهل العلم سابقٌ فعلا على التوبة، وشرطٌ واقعي لها، إلا أن ذلك لا يعني أنها منزلة تُتجاوَز فتنتهي، بل هي

منزلة دائمة تصحب العبد قبل توبته وبعد توبته إلى يوم مماته، وهذا يعني أن اليقظة في الحقيقة ليست مرتبطة بمرحلة معينة من العمر أو من العمل، بل هي مرتبطة بالإنسان ما دام يلهج عقله بالكسب للخير أو للشر، أي إن الإنسان في حاجة دائمة إلى اليقظة؛ لأنه ربما استيقظ فتاب، ثم غفل بعد ذلك ونام؛ فرجع عما كان عليه من الخير إلى ما كان عليه قبل من الشر والعياذ بالله.

والتوبة التي تحصل عن يقظة يجب أن تتأسس على هذا المعنى الذي يجب أن يبقى مقاما أو منزلة راسخة، وحالا ينبض به القلب على كل حال. ومن هنا، وجب أن يجدد العبد يقظته من حين لآخر وأن يتفقدها، تماما كما يجدد المؤمن توبته إلى الله. أي وجب أن يجدد العبد يقظته من حين لآخر، فيتفكر في نفسه، أهو يقظ أم إنه من الغافلين؟ أم إن السِّنَة -أي الطرقة من النوم الخفيف- تأخذه ويغفو فيزل من حين لآخر، وهو لا يدري؟

من هنا، كانت اليقظة من أهم المنازل ومن أرفع المقامات التي وجب على المؤمن أن ينتبه إليها، وأن يحرص على ضبطها، وأن يتتبع مظاهرها حضورا وغيابا حتى لا يكون من الغافلين، ولا من النائمين الذين إذا نسوا التفكر والتذكر، ونسوا التفقد- أي التفقد لحال القلب بين اليقظة والنوم - دخلوا في سبات وهم لا يعلمون.

[اليقظة منزلة إيمانية]

واليقظة من حيث هي مقام أو منزلة، مبثوثة معانيها في القرآن العظيم، ومبثوثة مفاهيم معانيها في السنة النبوية، لكن الوقوف هاهنا على ذكر المعاني والمفاهيم المرتبطة بهذا اللفظ الواردة في الكتاب والسنة، يلزمنا ببيان لفظ للنبي عليه الصلاة والسلام، لفظ يأمر بإيقاظ صواحب الحجر، ويقصد النساء أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

فقد صح في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أيضا، أن النبي عليه الصلاة والسلام استيقظ

ليلة محمر الوجه من الفزع، وهو يقول: ((لا إله إلا الله، سبحان الله، ماذا أنزلَ الليلة من الفتن؟ وماذا فتح من الكنوز؟ أيقظوا صواحب الحجر فرب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة))[1].

هذا وقد روي الحديث بأشكال مختلفة، منها ما ورد بمعنى آخر مقارب للأول، ذلك بأنه عليه الصلاة والسلام فيما روته عنه أم سلمة، أنه استيقظ ليلة وهو يقول في بداية الحديث: ((لا إله إلا الله، سبحان الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، ويل للعرب من شر قد اقترب. لقد فُتِحَ من سد يأجوج قدر هذه))[2]، قال الراوي: وعقد عليه الصلاة والسلام عشرا، أي أنه عقد أنامله العشر بشكل جعلهن قبضتين، وكأنه عليه الصلاة والسلام يمثل للحجر أو للطوب من حيث الحجم الذي ثُقِبَ في سد يأجوج ومأجوج، ذلك السد الذي ذكره الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ

1- رواه البخاري.

2- رواه البخاري.

مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا، قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا، قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا، آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا، فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا، قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[1].

قال شُرّاح الحديث: إن معنى ذلك أن هذا الثَّقب الذي حصل فنتج عنه ثُقبٌ في الجدار كان أول ثَقب وقع، في تلك اللية التي رأى فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام ما رأى، وهذا يعني أنه ومذ بنى ذو القرنين سد يأجوج ومأجوج وهو قائم، لا يستطيع هذا الجنس من الخلق مما سمي بـ"يأجوج

1- سورة الكهف الآيات 92- 98.

ومأجوج" أن ينقبوه ولا أن يثقبوه، إلى اليوم الموعود الذي قدره الله عز وجل.

وإذا كانت بداية ذلك، في ما رآه النبي عليه الصلاة والسلام في منامه في عهده عليه الصلاة والسلام. فذلك يعني أنه إذ ثُقِب الجدار في زمان النبي عليه الصلاة والسلام، فلن يُزَالُ منه ثقبه وهو شديدٌ، لأنه بُني بالقِطْرِ (النحاس الذائب) وزُبر الحديد، أي أن متانة الجدار وقوته، إنما هي مما مكن الله بها ذي القرنين وجنوده، وأنه لما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تفعل في الجدار ما فعلت قدْرَ عقْدِ عشر من الأنامل، فهذا يعنى أنها لا تزال تثقب منه وتنقب منه إلى أن يأتي أمر الله، فتفتح آنئذ يأجوج ومأجوج. وقديما قال الشاعر:

إن البناء إذا ما انهدَّ جـــانبه

لم يأمن الناسُ أن ينهد بـــاقيه

لذلك فحين قال عليه الصلاة والسلام: ((ويل للعرب من شر قد اقترب))، فإنه عليه الصلاة

والسلام كان يبصر ما لا نبصر، ويسمع ما لا نسمع؛ وفي ذلك إشارة إلى أن القلب يجب أن يستيقظ لمثل هذه الأحداث ولمثل هذه الأحوال، فقال: ((أيقظوا صواحب الحجر))، أيقظوا أمهات المؤمنين النائمات النوم الطبيعي، أي إنه أمَرَ بإيقاظهن لصلاة الليل، ولا يستيقظ البدن للصلاة ليلا أو نهارا، إلا إذا استيقظ القلب قبله، فإنما يقظة البدن من يقظة القلب، وإنما نوم البدن من نوم القلب. فلو استيقظ شخص بدنُه، ولمَّا يستيقظ قلبه فهو نائم وإن مشى في الطرقات، وإن باع واشترى في الأسواق، سيكون نائما غافلا يغط في نوم عميق، فهو غافلٌ غير يقظ.

واليقظة في حقيقة الأمر حدثٌ يقع بقلب المؤمن، لذلك أخذنا بدلالة الإشارة، أو ما يسمى بالتفسير الإشاري، أو بالشرح الإشاري للحديث النبوي الصحيح، فقوله عليه الصلاة والسلام: ((أيقظوا صواحب الحجر))، إنما هي دعوة لإيقاظ أمهات المؤمنين، دعوة منه صلى الله وسلم لأزواجه حتى

يجدن ما وجد رسول الله ﷺ من الخوف. أمّا أن يستيقظ الإنسان فقط ليجلس أو ليتكلم، أو حتى ليصلي ولا يجد في قلبه ما يجد الخائف من ربه حقا، فلا يزال بينه وبين اليقظة مسافة، لأن اليقظة منزلة إيمانية.

[العلم شرط الاستيقاظ]

إن هذا المعنى السالف الذي سبق معنا، يثبته حديث آخر صحيح رواه أحمد وابن ماجه والترمذي والحاكم، وصححه المعاصرون كما صححه الأقدمون، وهو مخرج في صحيح الجامع الصغير، وذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام في مفهوم هذا المعنى: ((إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله))[1].

وإنما أط في الحديث بمعنى أحدث صوتا من شدة الضغط، فعندما يجلس الإنسان على كرسي

1- حديث رواه أحمد وابن ماجة والترمذي.

متزهل، يسمع له وقتئذ صوتا، والنخلة أو الشجرة حينما تتعرض لعصف الريح تئط وتصدر صوتا، وهو صوت يصدر عن شدة الضغط، والسماء عندما أطت وحق لها أن تئط، فذلك لشدة الضغط لأنها مثقلة، بسبب الازدحام الحاصل لسجود الملائكة، فقال عليه الصلاة والسلام، تتمة للحديث: ((ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله))، أي إن السماء متزاحمة بالملائكة السجدة لله الواحد القهار، ازدحام أطت من أجله السماء، وحق لها أن تئط، لأن الملائكة وضعوا جباههم ساجدين لله الواحد القهار.

قال عليه الصلاة والسلام معلقا: ((لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، ولما تمتعتم بالنساء على الفُرُش ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله))، والصعدات جمع صعيد، والصعيد هو الموضع المنبسط الشاسع، والإنسان المسلم حينما يفزع، يخرج إلى الصعدات، كما في صلاة الاستسقاء، عندما يخرج الإنسان إلى الصعدات داعيا، وكذلك في

صلوات الخسوف والكسوف عندما يفزع الإنسان إلى الله باكيا. والجؤار من جأر يجأرُ جؤارًا، أي الصياح بالبكاء والدعاء استغاثة بالله الواحد القهار، ويجأر إلى الله، أي يصيح ويبكي خوفا من الرب العظيم ومن عقابه.

وقوله ﷺ: ((ولو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تمتعتم بالنساء على الفرش))، معناه أن الرجل تأتيه شهوته إلى زوجه، وكذلك الزوجة إلى زوجها، لكن عند الفزع يذهب عنه كل شوق إلى ذلك، وهذا لعظم الأمر، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، استنادا لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾[1]، هي ذهلت عن رضعها فما بالك بزوجها آنئذ، وقوله سبحانه: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2].

1- سورة الحج الآية 2.

2- سورة الحج الآية 2.

الجؤار الذي يحدث في القلب، إنما يحدث بعد العلم، ((لو تعلمون ما أعلم))، والعلم إنما يَحدُثُ للمستيقظ، أما الغافل فلا يرى شيئا.

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الأساليب يوقظ صحابته، ويتحدث إليهم وهم خيرة الصحابة الذين يفترض فيهم اليقظة، لكن رغم ذلك يذكر لهم: ((لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا))، فالعلم شرطه الاستيقاظ، لأن النائم يستحيل أن يقع العلم بقلبه، وإنما يقع العلم بقلب المستيقظ، ولذلك قال عز وجل في محكم كتابه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[1]، إنه نص قرآني واضح في معنى اليقظة.

إن آيات الله كثيرة في الأرض وفي النفس وفي السماء، آيات هي دلائل الحق، ودلائل العظمة، ودلائل الهول، ودلائل الخوف، تحفنا صباحا ومساء،

1- سورة يوسف الآية 104.

وتمر علينا ونمر عليها، ولا نبصرها، لأن القلب نائم غافل. فمن أعظم الآيات مثلا، أن تشرق الشمس كل يوم، وتغرب كل يوم، بل أن تشرق الشمس علينا، بشكل عجيب لو تأملنا وتفكرنا، وتغرب علينا بصورة غريبة لو تأملنا وتفكرنا، ومن أجمل الآيات انعكاس أشعة الشمس على الغيوم وإحداث الشفق، كل هذا المنظر الرهيب العجيب الذي يصنع كل يوم كيف تكون نهاية الكون، وكيف تكون نهاية النفس، قليل من الناس من يبصره، فهم ينظرون إليه ولكن لا يبصرون، ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1]، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[2]، كل هذا إن وقع فهو ضد اليقظة.

1- سورة الأعراف الآية 198.

2- سورة يوسف الآية 105.

[اليقظة والغربة]

إنه لو استيقظ القلب لرأى ولسمع، وإن يرى ويسمع ينتكس إلى حزن وإلى غربة، ((يا أبا ذر كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعد نفسك في أهل القبور))، فليس عيبا أن تعيش الدنيا، لكن أن تعيشها بغربة، أي إنك تضحك، ولكن ضحكة الغريب، وما أدراك ما ضحكة الغريب؟ إنها الضحكة التي تصدر عن الإنسان وقد أصيب بحزن عميق، أو تصدر عنه وهو ببلاد الغربة، بعيدا عن أهله وأصفيائه وبنيه، فالضحك يكون لكنه ممزوج بالحزن، فقد يُسرَّى عنه من حين لآخر فيضحك، ولكن تضحك الشفتان وتبرز الأسنان والقلب على كمده، لأنه غريب، والغريب إن ضحك لا تكتمل ضحكته.

ولذلك؛ فالمؤمن حينما يدرك في الأرض أنه غريب، ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل))، فإن ضحكه فيها إنما يكون على وزان غربته، لأنه يرى ويبصر، أو ببساطة لأنه يقظ. وحين ترى الشباب، بل الكهول والنساء يقهقهن في

الشوارع والمقاهي والأزقة، فذلك ليس له معنى إلا أنها ضحكة المعجب بنفسه، ضحكة الدلال الزائد الغافل البعيد عن الله عز وجل، أي إن صاحب القهقهة لم يعرف لليقظة بعد سبيلا، فهو يضحك لأنه لا يدري أين هو.

وقديما قال المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم.

وأما تنعُّم الجاهل إنما هو عليه لا له، بل هو عذاب على عذاب، وشدة على شدة، لأن ذلك لا يزيده إلا ضلالا، ولا يزيده إلا غطيطا في نومه وفي غفلته؛ لأن ذلك المرح الزائد، وذلك الدلال الذي يدل على فراغ البال من أي هم من هموم الحياة والآخرة، إنما يدل على أن هذا النوع من الناس يشرد ولا يزال يشرد بعيدا عن الصراط المستقيم الذي هو الاتجاه الصحيح.

وبذلك يزداد الشارد بمرحه وبفرحه نعما، لأن الله عز وجل لا يحب الفرحين؛ فالفارح بالفرح هنا ليس

هو ذاك الذي يقع السرور بنفسه حينما يسمع أخبار الخير، أو يتنعم بنعم الله حمدا وشكرا، ولكن الفرح هنا هو فرح التكبر والكبر والكبرياء. أي إنه يبدي الفرح لغاية الظهور على عباد الله، والضحك بالقهقهات منه، هو استبطان للكبر والغرور والجهل، وكل ذلك دال على أن هذا القلب مشمَّع مختوم بالغفلة، ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1]، قلب مختوم بالذنوب، مختوم بالسيئات، مختوم بالضلالات والجهالات.

على المؤمن إذن أن يطرق باب قلبه، ليقوم من وهدته وغفلته؛ فإنه إذا استفاق القلب وصل إلى سمعه نداء الرحمان، وإذا وصل إلى سمعه نداء الرحمان، استجاب وأجاب. في حين إذا كان القلب في غفلة، فإن نداء الله لا يصل إليه، وقتها يكون المؤمن مطالَب بطرق باب القلب لإيقاظه حتى

1- سورة البقرة الآية7.

تحدث له اليقظة التي بها يتوب، وبها يثبت على توبته، وبها يسير إلى ربه حتى يلقاه رَضيًّا مرضيا.

[التفكر مسلك لليقظة]

وحتى لا يبقى الكلام عاما، كان لا بد من بيان أسباب اليقظة التي إن أُخذ بها استيقظ القلب بصورة تلقائية. إذ التفكر من أولى وسائل الإيقاظ للقلب، فالله عز وجل حين أمر نبيه مُحَمَّدا عليه الصلاة والسلام بأن يأمر الكفار بالتفكر فذلك لغاية اليقظة؛ فالكافر البعيد عن الإسلام، لو قيل له اقرأ القرآن، فهو لا يؤمن بالقرآن، ولو قيل له تفكر في خلق السماوات والأرض؛ فهو لا يؤمن بأن للسماوات والأرض خالقا، لكن رغم ذلك قال له الحق سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[1].

1- سورة سبأ الآية 46.

فالتفكر في حقائق الحياة، ليس شرطا فيه أن تبحث عن خالق الحياة رغم أهمية ذلك، ولكن قبل ذلك، هنالك مرحلة تسمى النظر الأول، وهي تبدأ بسؤال "من أنت؟" أو بالأحرى "ما أنت؟"، لأن استعمال ما لغير العاقل دليل على التجهيل الذي كان قبل، تعبيرا عن مرحلة سبقت إدراك العقل، أي كانت قبل أن يكون للإنسان وجود مدرك، يشعره بالحياة، إنه الوجود الذي استحق "من" قبل أن يكون "من".

لذلك فسؤال: ما كنت قبل ذلك؟ أي شيء؟ أي وجود؟ أي حقيقة؟ مسلك إن حاولت أن تصل عبره بعقلك للجواب عنه، ستصل إلى العجز المطلق، وقتها يكون العجز هو بداية الطريق الصحيح، أي حينما تشعر بالعجز، فذلك بداية الطريق الصحيح.

ولقد نبه الله تعالى على هذا المعنى في القرآن، وبالضبط في سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[1].

يبدو أنك أيها الإنسان ما فكرت في ذلك يوما؟ والواجب أن تفكر، أي أن تفكّر في الحياة قبلك، وأن تفكر في الحياة بعدك. فإن فكّرت في هذا، فاعلم أنك ستعطي للحياة معنى بوجودك وإدراكك، أي إن معنى الحياة يأتي من موجودك فيها، فأنت حين تشعر بها، وتجد لها ذوقا ومعنى، فذلك لسبب واحد هو أنك أنت موجود فيها، ليس معناه أنها كانت محتاجة إليك، لتعطيها أنت معنى، طبعا لا، لأنها ما كانت في حاجة إليك، فقد كانت متدفقة في الأرض قبل أن تكون أنت، جارية كما أمر الله، وهذا يعني أنك أنت أيها الإنسان طارئ على الحياة، فغيابك لا ينقص من علم الله ولا من عظمته شيئا، ووجودك لا يزيد في ملكه ولا يعطي لذلك شيئا أبدا، لأن

1- سورة الإنسان الآية 1.

وجودك أيها الإنسان هو في الأصل بعض عطائه، وهو جزء من منته سبحانه وتعالى، فعَدمنا لا يكون إلا بأمره، ووجودنا لا يكون إلا بأمره، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1].

ثم ما الحياة بعدك أيها الإنسان؟ سؤال الجواب عنه يدل على استمرارية الحياة بعد الإنسان، فهي لا تفقد شيئا بموته، بل من جهل الإنسان وشَرَهِه، أنه يخطط للحياة بعد موته، فيما يظن أنه هو مالكه وإليه يعود، وهذا غلط.

صحيح أن الإنسان يلزمه أن يخطط للحياة بعد موته، لكن حياته في قبره، أي حياة النفس وإن مات البدن. ثم حياة البدن بعد البعث. فهذا الذي يلزم أن يخطط له، إذ القلب لما يغفل عن هذا المعنى، يصبح مشغولا بأمور هي لله رب العالمين، ومنشغلا عن أمور هي له، الأولى أن يهتم بها. فقد تجد أبا مشغولا بهم أبنائه من بعده أو في حياته

1- سورة يس الآية 82.

(ماذا يترك لهم؟ من يعولهم إذا مات؟ ...)، بشكل غير مطلوب منه. في مقابل ذلك لا تجده مهتما بشغله (هل رباهم التربية الحسنة؟ ماذا ترك في رصيدهم من القرآن؟ ...)

وهذا يعني أنه لم يقم بواجبه، واتجه لينافس ربه في تدبيره سبحانه، وهو يعلم أنه لن يقدر على إتيان بعض تدبير أمور الله، لأن الله تكفل بذلك لوحده دون شريك، فالله عز وجل لا يترك عبدا يتدخل في سلطانه وأمره ونهيه، فإن فعل العبد شيئا من ذلك فهو بقدر الله، وإن تجاوزه فآنئذ لا يكون العبد إلا آثما، كما يقع في التركات مثلا، عندما تجد الأب خائفا من سطوة الذكور على الإرث دون الإناث، فيعمد إلى كتاب الثلث للأولى، وبعضه للثانية، والأمر قبل ذلك وبعده من أمر الله عز وجل، بينه في كتابه سبحانه بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[1]. ثم ما يدري الهالك أن

1- سورة النساء الآية 11.

ذلك الفتى من أبنائه ممن اعتبر فاسقا بذهن الهالك وظنه، قد يصلح حاله غدا ويكون من الصالحين؟ ويقسم التركة كما هي، ويكون الهالك وقتها قد تدخل في قسمة الله، فوزعها على غير وزانها وظلم ابنه، لأن الإنسان يفكر استنادا على عقله، ورب العالمين يقدر بعلمه سبحانه وتعالى.

ولذلك؛ فالواجب عليك أيها الإنسان أن تفكر في الحياة بعدك، وما ينقصك فيها، لا أن تتدخل فتفسد من حيث لا تصلح، علما أن تدخلك هذا لن يكون إلا جزئيا ضعيفا، ثم تموت أسرتك، وتبيع ما كان لديها من تركة أو تأكله أو توزعه أسر أخرى تأتي بعدك، وتوزع كل شيء، لأنه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1]، حدك ما بين تاريخ ميلادك وتاريخ وفاتك.

ولو تأمل الناس هذا فعلا، بقلب يبحث بنية صادقة، لاستيقظوا. ولو استيقظ الإنسان، لوقر العلم

1- سورة آل عمران الآية 128.

بقلبه، ولو علم بحقائق الحياة وبحقيقة نفسه، لفزع ولوجل. فإذا فزع ووجل، بدأ العلم يقع بقلبه من لدن الرحمان، كلما قرأ القرآن، أو تدبر الكون ونظر في الكائنات، أو نظر إلى نفسه أو نظر إلى النعم السابغات عليه، لأن ذلك باب من أهم الأبواب، ومسلك من أهم المسالك لإيقاظ القلب. فتفكروا في أنفسكم وفي ما حولكم، تفكروا في الحوادث التي تجري حولكم وفيكم، فإنها طَرَقات تدق القلب من حين لآخر، ولو أدمت التفكر لكان معناه إدامة الطرق على القلب حتى يقوم يقظا.

[التدبر مسلك لليقظة]

والمسلك الثاني لليقظة بعد التفكر، هو التدبر. وإنما التدبر يكون للقرآن؛ لذلك فإن التدبر - حسب الكثير من الناس- يحصل بقراءة الكثير من القرآن، لكن التدبر لا يحتاج إلى الكثير من القرآن، بل يحتاج إلى الكثير من التوفيق ليستيقظ القلب. فقد تجد الإنسان العابر في الطريق، وأثناء مروره وعبوره يسمع الكلمة الواحدة من القرآن، تكون بتوفيق الله

جديرة بأن توقظه، كلمة واحدة فقط، وليس آية أو سورة، إنها كلمة واحدة وجدت مستقرها في القلب فأيقظته لأنه تدبرها، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1]، فاطرق قلبك بعد هذا بتدبر القرآن وآيه.

لذلك كان التدبر على المجمل هو إعمال الخاطر ووجدان النفس والفكر في مآلات الآيات وآثارها على النفس والحياة، وعلى الكائنات. فإن رغب العبد في التدبر فليبسط الآيات من القرآن، وليأخذ سورة الفاتحة التي قلَّما تغيب عن ذهن المسلم وهو يصلي آياتها، فكل مصلي هو قارئ للفاتحة، بل إن الكثير ممن لا يصلي يقرأ الفاتحة وسورة الإخلاص، والمعوذتين، وفي ذلك كله وغيره من السور قناطير مقنطرة من العلم، لا يحصيها عد ولا كتاب ولا قرطاس.

1- سورة محمد الآية 24.

إن التدبر لا يؤخذ من التفاسير، بل الذي يؤخذ منها هو العلم، لكن علم أحوال القلب وعلم أحوال النفس، وأحوال المجتمع، لأن تلك حقائق تدبرية؛ ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1]، ولهذا جاء التدبر مرتبطا بالقلب؛ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2]، فالقلب إذن خزينة الإيمان؛ ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[3]، أي إن خزينة الإيمان إما أن تكون عامرة وإما أن تكون فارغة والعياذ بالله، وحتى تملأها فخذ آية من كتاب الله تعالى، وعش معها، اقرأها بالليل والنهار، حاول أن تبحث عن مظاهرها إثباتا ونفيا في نفسك؛ إذا حضرت كيف تكون؟ وإذا غابت كيف تكون؟ فإن فعلت كل هذا، فاعلم أنك على مسلك التدبر.

1- سورة ص الآية 29.

2- سورة محمد الآية 24.

3- سورة الحجرات الآية 14.

[مطالعة النعم مسلك لليقظة]

أما المسلك الثالث الذي يوقظ القلب فهو مطالعة النعم، أي أن ترى بعين البصيرة نعم الله عز وجل تترى في الكون قبل أن تكون، وفي الكون عندما تكون، وفي الكون من بعد ما تزول ولا تكون. إذ نعم الله عز وجل متدفقة كالبحر، تحيطك من كل مكان، خلقة وهداية وإطعاما وحفظا، إلى غير ذلك مما لا يعده لسان ولا يحصيه قلب. ذلك بأن مطالعة النعم تقود من لم يفقد فطرته ولم تمسخ سريرته، إلى الرغبة في الشكر، أي عندما تشعر بأن الله يعطيك، وعندما تبصر بأن الله ينعم عليك النعم بدءا من نعمة الإيجاد والخلق إلى نعم السكينة والحياة، وقتها وجب عليك أن تكون عبدا لمن خلقك، بل وجب أن تكون خادما لباب من أبدعك وأنشأك ولم تكن شيئا مذكورا.

إن صدق التأمل في كل ذلك، يولد شعور الرغبة الصادقة في شكر الله، وكلما شكرته ازددت شوقا إلى شكره؛ لأن الشكر يقودك إلى اكتشاف

الجديد من نعم الله فتزداد شوقا إلى شكر الله. فالمسلم حينما يُصلح الله حاله يشكره في صورة، وقبل أن يصلح حاله يشكره في صورة أخرى. فهو شبيه بذلك الإنسان المذنب التائه الضال، الذي استيقظ بفعل من الأفعال، ولسبب من الأسباب، فجاء تائبا إلى الله عز وجل، يعبده ويشكره لأنه أنعم عليه بالنجاة من الضلال. مقابل لذة أخرى من الشكر، حينما تشكره وتحمده سجودا وركوعا وسعيا إلى الخيرات والصالحات، فأنت تشكره على أن هداك، وأن جعلك من الصالحين؛ فلشكرك هذا لذة أخرى، ليس لأنه هداك فقط، لا هذه حصلت، ولكن لأن للشكر نفسه حلاوة وجمال. كما للصلوات جمال، وللوضوء جمال، وللسعي إلى المساجد لذة، وللصوم والإحساس بالجوع جمال وسكينة. كل ذلك يعني أن في الإسلام جمال ولذة، وكأنك لا تشكر الله على أن هداك وحسب، بل على أن هداك وجعل شكرك له محتاج إلى شكر، أي أنك تشكره لأنه وفقك لشكره.

والعجيب أنه لا يزال العبد في شكر كلما شكر الله، ولا يزال ربك يزيدك كلما زدت، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، إنها زيادة بمعنيين، زيادة النعم التي شكر العبد ربه من أجلها، وزيادة التمتع والرغبة والشوق في الشكر، وهذا أعلى مراتب الإحساس وأعلى درجات اليقظة.

[مراتب اليقظة]

وحين قلنا عن "الشكر لنعمة الشكر" بأنه أعلى درجات اليقظة، فذلك لأن لليقظة مراتب، كما هو في قياس يقظة النفس في البدن، فلحظة الاستيقاظ من النوم وأنت يقظ، ليست مماثلة للحظة المشي من بعد يقظة، ولحظة المشي من بعد يقظة، ليس شبيهة بلحظة الوضوء يقظا، وليست محاكية للحظة اليقظة أثناء الصلاة. كل هذا يعني أن اليقظة في نفسها مراتب أيضا، لأن اليقظة منزلة من منازل الإيمان، تستيقظ وتستيقظ وتستيقظ، ولا تزال تستيقظ كلما

1- سورة إبراهيم الآية 7.

طرقت قلبك حتى تكون من الذاكرين، وحتى تكون من المقنطرين بسبب علو شأنك عند الله، وبسبب شدة قربك من أعتابه العليا، ((ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه))، وتلك درجة المحبة، أو منزلة المحبة التي لا يصلها إلا من وصل قلبه أعلى مراتب اليقظة، فكان شديد الإحساس.

على أن الإحساس بدوره مراتب، فهناك الإحساس المتأخر والإحساس البطيء، والإحساس الجزئي الذي لا يحس إلا بقدر معين من الإحساس لا بأدق مراتبه، وهذا له صلة بدقة الملاحظة والتدبر للآيات والسور، ودقة الملاحظة والتفكر في العبارات النبوية، ودقة الملاحظة والنظر في آيات الكون، دقة لا تستلزم بالضرورة العلم بدقائق البلاغة والنحو والتقديم والتأخير، لا أبدا. وإنما تستلزم إحساسا يستشعر أثر الكلمات على القلب، أي حينما يقرأ قول الله عز وجل مثلا: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ يشعر بلذة الحمد، وشعور القلب بلذة الحمد معنى يتجاوز التفسير، لأن التفسير إنما جعل

ليقرب معاني الحمد للقلب كي يستيقظ، وعندما يعي القلب لذة الحمد من قول الله تعالى ﴿الحمد لله رب العالمين﴾؛ فهذا يعني أن المقصود تحقق لأن القلب يقظ، فهو حينئذ لا يحتاج إلى كثير حديث ولا إلى كثير علم ووعظ.

فقد تجد العالم المفسر الذي ليس قلبه يقظا، حتى وإن حدثك طوال الوقت بالمعاني الموقظة؛ فلن يصل بك حديثه إلى معنى الحمد من الآية، إلا إذا كان قلبه يقظا لا نائما ولا غافلا، في حين قد تجد الأمي الذي قلبه يقظا وله حظ من لذة الحمد، قادرا على إيقاظك بكلمة عامية فقط. ومجمل القصد من كل ذلك هو أن هذه المعاني متاحة للعالم ولغير العالم، فهي لا تحتاج إلى علم كثير بل تحتاج إلى يقظة دائمة، وأما العلم فيكفيك منه ما تعمل به، أي المعلوم من الدين بالضرورة. إذ القلوب تتبارى في السبق إلى المعاني الوجدانية النفسية التي هي آثار الكلمات على القلب، معاني لا يكون الوصول إليها بالعلم، بل الوصول إليها يكون بالتذوق الدال على اليقظة التي تزيد صاحبها

إيمانا ، لا بالإحساس الميت الجاف الذي يزيد صاحبه ابتعادا ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[1].

فهذا رسول الله ﷺ وجد مرة نبتة أو بقلة، فأخذها عليه الصلاة والسلام وقبّلها، ورأى مرة جبل أحد، وهو جبل أصم أبكم من الحجر، فقال: ((هذا جبل يحبنا ونحبه))، إنها قمة اليقظة والإحساس بالكائنات، إنه إحساس يعي أن الأشياء الموجودة بالكون هي ذات صلة بالإنسان، يربط بينها وبينه أخوة في الله. أوليس هو سائرا إلى الله؟ بلى، وكذلك هي سائرة إلى الله تعبده بطريقتها، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2].

فالأشياء الموجودة في الكون سابحة إلى ربها، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3]، والإنسان سابح أيضا

1- سورة البقرة الآية 74.
2- سورة الإسراء الآية 44.
3- سورة يس الآية 40.

إلى ربه عبر فلك الأرض وعبر فلك النفس. والذي لا يرى ذلك أعمى لا يفقه، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1]، لزم إيقاظه عبر التربية على الإحساس بالأشياء، فهي أمور تكتسب بالتدرب عليها وتدقيق الملاحظة فيها، وإلا استبدت العادة اليومية على الإحساس فقتلته وبلدته.

ولو تأملت أيها الإنسان في بعض البديهيات لرأيت عجبا، فانظر إلى الماء الذي تشربه وقد ذكره الله عز وجل في القرآن غير ما مرة، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ، أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ، لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[2]، تأمل في الماء الذي ظاهره مركب فيزيائي (أوكسيجين وهيدروجين)، وحقيقته نعمة من أعجب نعم الله وأغربها. به تكون الحياة فيك وفي غيرك من الكائنات، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[3]،

1- سورة الحج الآية 46.
2- سورة الواقعة الآية 68-70.
3- سورة الأنبياء 30.

وبفقده يفقد كل شيء حياته ويكون من الموتى. ما الماء الذي لا لون له ولا طعم، لكنه لذيذ؟ لا أحد يعرف، لكن العرب قديما قالت: "فسر الماء بعد الجهد بالماء"، أي أنه فكر كثيرا وجهد زعما واجتهد، وفي الأخير قال: الماء هو الماء، وكل شيء في الحياة هو كذلك.

ثم انظر إلى النَّفس، وما النَّفس؟ فهو ليس هواء تتنفسه يسهل التعبير عنه في كلمة أو جملة فيزيائية أو كيميائية فقط، بل هو نعمة يصعب شرحها بالمعنى الوجودي والنفسي في قلب الإنسان؛ لأن النفس هو جوهره، من حيث هو نعمة خلقها الله، ولذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام يتفكر، ويدقق النظر، ويجد للأشياء معانيَ غريبة، يستعين على فهمها بتسبيح الله وذكره، لسانه عليه الصلاة والسلام رطب لا يفتر ولا يعيى بالذكر والشكر أثناء اليقظة والمنام، بل إن نومه عليه الصلاة والسلام كان يقظة، ولم يكن أبدا نومه غفلة.

[التربية على اليقظة]

لقد كان رسول الله ﷺ معلما من أعظم معلمي العالم، بل هو أعظم معلمي العالم، مهمته البلاغ، أي أن يبلغ للأمة المعلومات، ليس ليُحفّظها للناس كي يصنع منهم طاقات قيادية وريادية، بل وليصنع لهم الأذواق كذلك، وهذا من أصعب مراتب التعليم.

فقد تجد لذة لطعام ما، هي عند الآخر غير موجودة، وتسعى جاهدا لإقناعه بأكله تحفيزا وتحبيبا، لكنه لا يجد له مذاقا، وهذا يعني أن التربية على التذوق مسلك صعب، فكيف بالتربية على تذوق القرآن؟ فالذوق صعب أن تربي عليه أحد، سواء بالإعداد لتقبله بعقله، أو بالتحفيز على استشعاره بقلبه، أو بالتدريب على تلمسه بإحساسه. ومع ذلك كله؛ فالرسول ﷺ كان يُعلِّم الأذواق، وتلك أعلى مراتب التعليم التي ليس بعدها مرتبة.

لقد كان عليه الصلاة السلام بالقرآن وبالحكمة التي رزقها الله إياه، يُعلم الناس كيف يستيقظون،

وإنما اليقظة ذوق وإحساس، ويعلمهم كيف يطرقون أبواب القلوب، ويوقظونها حتى تستشعر هذه المعاني. وتلك معاني نحن في حاجة إليها اليوم أكثر من أي وقت مضى، لأننا لو استيقظنا فعلا لتبدل حالنا.

إننا اليوم في زمان لا يستيقظ فيه إلا من أحبه الله، ولا يغفل ويشرد فيه إلا من أبغضه الله، نعوذ بالله. وقد تقارب الزمان فيه، وحدث من الدلائل والأمارات ما حدَّث عنه النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث الفتن، وتواترت معانيه في كتب السنن، بأنه الزمان الذي هو بين يدي الحوادث العظمى، حيث يوشك أن يخرج الدجال، وتشرُب إلينا يأجوج ومأجوج من كل حدب ينسلون، وأن يخرج المهدي، وأن ينزل المسيح عليه السلام، وأن يقع كل شيء مما فصله النبي عليه الصلاة والسلام، ونص على كثير منه القرآن العظيم.

إن الذي يسمع أحداث هذا الزمان، ويرى ويبصر ثم لا يدرك فإنه أعمى، لأن الحقائق ما عادت قابلة لتأويل آخر، بل هي ناطقة بنفسها عن نفسها.

وإذا كانت حجرة قد ثُلِمت من سد يأجوج ومأجوج في زمان النبي عليه الصلاة والسلام وقد مضى على عهده ما تعلمون، فكم يكون الثلم اليوم؟

لقد حدَّث النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الثقب؛ إذ قال: ((ويل للعرب من شر قد اقترب))، والعجيب في التعبير، أنه ﷺ قال: ((ويل للعرب))، قال المفسرون شراح الحديث: القول بالعرب، لأنهم يومئذ أول من أسلم، وهو تأويل كان على زمانهم، أي خلال الصدر الأول من الأمة، إبان القرون الهجرية الأولى. ولكن الواقع اليوم يفسره بصورة أخرى لا تنقض تلك، ولكن تكملها. لأن العرب اليوم مع الأسف، هم بغير دين، والقول بـ((ويل للعرب من شر قد اقترب))، أي إنهم حملوا لولاء قوميتهم، بعيدا عن دين الإسلام، فكان إنذارهم بالويل الذي اقترب فعلا.

على أن المؤمن في كل هذا لا يكون إلا في مأمن وإن وقع ما وقع، وإن هلك مع الهالكين؛ ففي رواية من روايات الحديث، قالت زينب زوج النبي عليه

الصلاة والسلام: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: ((نعم، إذا كثر الخبث))، أي إن أم المؤمنين رضي الله عنها تأسفت كيف نهلك وفينا الصالحون، فكان جوابه عليه السلام مطابقا لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[1]، أي إنها تصيب الكل، إذا كثر الخبث، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله العافية.

[اليقظة إيقاظ للناس وصبر في الله]

لذلك فالمؤمن مطالب في يقظته بأن يجأر بنفسه إلى الله، وأن يجهد لإنقاذ محيطه، بدأ من أسرته (الأب، والأم، والزوجة، والأبناء، والإخوة) إلى الأصدقاء والأصهار والناس، أي إن المؤمن يلزمه أن يشتغل بمن حوله، عسى أن يكون من الناجين؛ لأن حجة الله على خلقه، ليست في أنهم لم يؤمنوا فقط، ولكن لأنهم لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وهم مؤمنين. وقد صح في الحديث المسند إلى النبي عليه

1- سورة الأنفال الآية 25.

الصلاة والسلام، وهو مخرج في صحيح الجامع الصغير، قال عليه الصلاة والسلام: ((إن الله تعالى ليسأل العبد يوم القيامة حتى إنه ليقول: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإذا لقن الله عبدا حجته قال: يا رب رجوتك وفرقت الناس))، أي حينما يحاسب الرب عباده، يحاسبهم سبحانه وتعالى عن المنكر لمَ لمْ تغيروه إذ رأيتموه.

إن الله عز وجل حين يعدد مع عبده حوادث ونوازل عمره، من بعد بلوغ مرتبة التكليف، عن الحسنات بما ألحقتها، وعن السيئات بما محوتها، هل أتبعها بالحسنات لتمحوها، أم تركتها تغزلُ عليها أخرى؟ قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: ((تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها نكتت فيه

نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء))[1].

فحين يُشربُ الخمر على المائدة وأنت جالس، وحين تُفعل الفاحشة قريبا منك أو حولك وأنت راض جالس، تشاهد بعينيك وتسمع بأذنيك المنكر وأنت صامت، وتتفرج على أسوأ الكلمات وأسقط العبارات بينك وبين أهلك على التلفزيون وأنت منشرح ...، كل ذلك حين يقع، فاعلم أنك مساءل، ((حتى يسأله عن المنكر لم لم تغيره إذ رأيته. قال عليه الصلاة والسلام: فإذا لقن الله العبد حجته، قال يا رب، رجوتك وفرقت الناس))، أي إن أعطاك الله الجواب قلت: رجوتُ رحمتك يا رب وخفت الناس، وهو جواب لا يقدره أحد إلا من كان فعلا رجا رحمة الله، وأدرك يقينا أن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر سيؤذيه أذى لا يتحمله.

1- رواه مسلم.

هذا وقد ذكرنا قبل أن الذي يمنع الإنسان غالبا، وفي كثير من الأحيان، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس هو الخوف من الناس، بل الخوف من النفس، لأنك لا ترضى لنفسك أن تهان، أو أن تسمع في حقها كلمة قبيحة، لذلك فالذي يفزعك ويمنعك من النهي عن المنكر هو نفسك المتكبرة وحبك لذاتك. حتى إنه علم من سيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان يسمع الأذى من المشركين، ويتلقى أذى تتشقق له السماء وتنهد له الجبال، وهو مع ذلك يصبر، لأن صبره كان في الله، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[1]، لذلك كان سيد الصابرين.

إن اليقظة التي كانت في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت أعظم من أن يشعر بإيذاء السفلة، لأنه كان عليه السلام يعلم ما لا يعلم الناس، ((لو كنت تعلمون ما أعلم))، وكان يرى ما لا يرى الناس، وكان يسمع ما لا يسمع الناس، كان يقظا

1- سورة النحل الآية 127.

مُحَدَّثا ومُخَاطبا، كان موحى إليه، قلبه في أعلى درجات الاستيقاظ وفي أرفع مراتب الاستعداد.

فمن منا إذن يستجيب لهذا المفهوم الرفيع لمنزلة اليقظة؟ من منا تتشوق نفسه إلى هذه المرتبة من اليقظة؟ من منا يعقد العزيمة والإرادة لتسلق مدارج هذا المنزل العظيم؟ فيكونَ حاله يقظا لأداء الصلوات الخمس، ولقيام الليل، يوقظ قلبه للصلوات فيستعد لها استعدادا، ويوقظ أهله لهذا الخير فيبادر له إقبالا، لأن المستيقظ الذي يدرك هول الأمر، يستجيب له طوعا بأهله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[1].

إن اليقظ عندما يدرك أن النار محيطة وأن الشر قريب، فهو يوجل ويستجيب، وأعزُّ ما لديه بعد نفسه أبناؤه وزوجه، لذلك فهو يبادر إلى إنقاذ ما بقي منهم، أو إلى إنقاذهم جميعا، وبذلك يكون قد خرج من النذارة إلى البشارة، ليجد لذة اليقظة في نفسه

1- سورة التحريم الآية 6.

وفي بنيه، فتتضاعف أحاسيسه باليقظة؛ لأنه حينما يرى زوجته قائمة تصلي بسبب يقظته، أو حينما ترى زوجها قائما يصلي بسبب يقظتها، تتحقق لذة أخرى، من غير اللذة الأولى التي تحدثنا عنها، أي إنك تشكر فتجد لذة الشكر على النعمة، ثم تجد لذة الشكر على الشكر، ومرة أخرى تجد لذة إن صلى فلان بسببك، وقام الليل فلان بسببك، وتاب إلى الله فلان بسببك. تلك لذة لا تنقطع أبدا، إلى يوم القيامة، ما دام ذلك الإنسان يعبد الله على صراط مستقيم.

كل هذا الذي ذكرناه ليس في حاجة إلى علم غزير ولا إلى كلام كثير، ولكنه في حاجة إلى صدق مع الله عميق، فإذا صدق القلب انطلق اللسان، ليس بالبلاغة والفصاحة، ولكن انطلق بالصدق والمحبة والإحساس.

فالحسرة تعلوك وأنت ترى جماعات الناس في التيه والضلال المبين يركضون ركض البغال في الظلمات وفي الطرقات، يسابقون إلى الشهوات،

ينهارون بذلك خريفا بعد خريف، في نار جهنم والعياذ بالله. وأنت قريب منهم، تخشى على نفسك، ولا أمن لك إلا بتأمين محيطك، ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1]. لذلك فالأمان الحقيقي ليس أن تكون في أمان وحدك، بل أن تكون أنت ومحيطك في أمان، وهذا يدعوك إلى أن توقظ محيطك بعد أن تستيقظ، أي أمِّن نفسك وأمِّن محيطك، تكن آمنا حقا ومستيقظا صدقا.

فاللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا لك من الشاكرين. اللهم إنا نعوذ بك أن نكون من الغافلين. اللهم اجعلنا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات، واجعلنا لك من الشاكرين ولآلائك وأنعمك من الحامدين برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين. وصل اللهم على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

1- سورة يس الآية 30.

ملحق(1) :

منزلة اليقظة عند ابن قيم الجوزية

[منازل العبودية]

((أول منازل العبودية اليقظة، وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين. ولله ما أنفع هذه الروعة وما أعظم قدرها وخطرها وما أشد إعانتها على السلوك! فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة؛ فإذا انتبه شمر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى، وأوطانه التي سبى منها.

فحي على جنات عــــدن فإنها
منازلك الأولى وفيها المــــخيم
ولكننا سبى العـــــدو فهل
ترى نعود إلى أوطـانا ونسلم ؟

فأخذ في أهبة السفر، فانتقل إلى منزلة (العزم) وهو العقد الجازم على المسير، ومفارقة كل قاطع ومعوق، ومرافقة كل معين وموصل. وبحسب كمال

انتباهه ويقظته يكون عزمه. وبحسب قوة عزمه يكون استعداده.

فإذا استيقظ أوجبت له اليقظة (الفكرة) وهي تحديق القلب نحو المطلوب الذي قد استعد له مجملا، ولما يهتد إلى تفصيله وطريق الوصول إليه. فإذا صحت فكرته أوجبت له (البصيرة) فهي نور في القلب يبصر به الوعد والوعيد، والجنة والنار، وما أعد الله في هذه لأوليائه، وفي هذه لأعدائه))[1].

((واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويفارقه وينتقل إلى الثاني كمنازل السير الحسي، هذا محال، ألا ترى أن (اليقظة) معه في كل مقام لا تفارقه، وكذلك (البصيرة) و(الإرادة) و(العزم) وكذلك (التوبة) فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضا، بل هي في كل مقام

1- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق عماد عامر، دار الحديث، القاهرة 2005م: 1/ 105.

مستصحبة، ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته))[1].

[حي على الفلاح]

((فاعلم أن العبد قبل وصول الداعي إليه في نوم الغفلة قلبه نائم وطرفه يقظان فصاح به الناصح وأسمعه داعي النجاح وأذن به مؤذن الرحمن: حيّ على الفلاح. فأول مراتب هذا النائم: اليقظة والانتباه من النوم وقد ذكرنا: أنها انزعاج القلب لروعة الانتباه.

وصاحب المنازل يقول: "هي القومة لله المذكورة في قوله تعالى:﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾[2].

قال: "القومة لله هي اليقظة من سنة الغفلة والنهوض عن ورطة الفترة وهي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه وهي على ثلاثة أشياء:

1- ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين: 1/ 113.
2- سورة سبأ الآية 46.

لحظ القلب إلى النعمة على اليأس من عدها والوقوف على حدها والتفرغ إلى معرفة المنة بها والعلم بالتقصير في حقها".

وهذا الذي ذكره: هو موجب اليقظة وأثرها فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة لاستنارة قلبه برؤية نور التنبيه أوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة وكلما حدق قلبه وطرفه فيها شاهد عظمتها وكثرتها فيئس من عدها والوقوف على حدها وفرغ قلبه لمشاهدة منة الله عليه بها من غير استحقاق ولا استجلاب لها بثمن فتيقن حينئذ تقصيره في واجبها وهو القيام بشكرها.

فأوجب له شهود تلك المنة والتقصير نوعين جليلين من العبودية: محبة المنعم واللهج بذكره وتذكر الله وخضوعه له وإزراءه على نفسه حيث عجز عن شكر نعمه فصار متحققا ب"أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" وعلم حينئذ أن هذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار وعلم حينئذ أن الله لو عذب أهل

سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم وعلم أن العبد دائما سائر إلى الله بين مطالعة المنة ومشاهدة التقصير.

قال: "الثاني مطالعة الجناية والوقوف على الخطر فيها والتشمير لتداركها والتخلص من رقها وطلب النجاة بتمحيصها".

فينظر إلى ما سلف منه من الإساءة ويعلم أنه على خطر عظيم فيها وأنه مشرف على الهلاك بمؤاخذة صاحب الحق بموجب حقه وقد ذم الله تعالى في كتابه من نسي ما تقدم يداه فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[1] فإذا طالع جنايته شمر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل وتخلص من رق الجناية بالاستغفار والندم وطلب التمحيص وهو تخليص إيمانه ومعرفته من خبث الجناية كتمحيص الذهب

1- سورة الكهف الآية 57

والفضة وهو تخليصهما من خبثهما ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب ولهذا تقول لهم الملائكة ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1]، وقال تعالى:﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾[2] فليس في الجنة ذرة خبث.

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة والاستغفار وعمل الحسنات الماحية والمصائب المكفرة فإن محصته هذه الأربعة وخلصته: كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يبشرونهم بالجنة وكان من الذين﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾[3] عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

1- سورة الزمر الآية 73.

2- سورة النحل 32.

3- سورة فصلت الآية 30.

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾[1].

وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه فلم تكن التوبة نصوحا وهي العامة الشاملة الصادقة ولم يكن الاستغفار كاملا تاما وهو المصحوب بمفارقة الذنب والندم عليه وهذا هو الاستغفار النافع لا استغفار من في يده قدح السكر وهو يقول أستغفر الله ثم يرفعه إلى فيه ولم تكن الحسنات في كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير ولا المصائب وهذا إما لعظم الجناية وإما لضعف المحص وإما لهما محص في البرزخ بثلاثة أشياء:

- أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه واستغفارهم له وشفاعتهم فيه.
- الثاني: تمحيصه بفتنة القبر وروعة الفتان والعصرة والانتهار وتوابع ذلك.

1- سورة فصلت الآيات 30-32.

- الثالث: ما يهدي إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال من الصدقة عنه والحج والصيام عنه وقراءة القرآن عنه والصلاة وجعل ثواب ذلك له وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء قال الإمام أحمد: "لا يختلفون في ذلك وما عداهما فيه اختلاف والأكثرون يقولون بوصول الحج" وأبو حنيفة يقول: "إنما يصل إليه ثواب الإنفاق" وأحمد ومن وافقه: مذهبهم في ذلك أوسع المذاهب يقولون: يصل إليه ثواب جميع القرب بدنيها وماليها والجامع للأمرين واحتجوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن سأله: "يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد مماتهما؟ قال: نعم فذكر الحديث" وقد قال: "من مات وعليه صيام صام عنه وليه".

فإن لم تف هذه بالتمحيص محص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة وشدة الموقف وشفاعة الشفعاء وعفو الله عز وجل.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلا بد له من دخول الكير رحمة في حقه ليتخلص ويتمحص ويتطهر في النار فتكون النار طهرة له وتمحيصا لخبثه ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته وشدته وضعفه وتراكمه فإذا خرج خبثه وصفى ذهبه وصار خالصا طيبا أخرج من النار وأدخل الجنة.

قال (الثالث) يعني من مراتب اليقظة (الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام والتنصل من تضييعها والنظر إلى الظن بها لتدارك فائتها وتعمير باقيها).

يعني أنه يعرف ما معه من الزيادة والنقصان فيتدارك ما فاته في بقية عمره التي لا ثمن لها ويبخل بساعاته بل بأنفاسه عن ذهابها ضياعا في غير ما يقر به إلى الله فهذا هو حقيقة الخسران المشترك بين الناس مع تفاوتهم في قدره قلة وكثرة فكل نفس يخرج في غير ما يقرب إلى الله فهو حسرة على العبد في

معاده ووقفة له في طريق سيره أو نكسه إن استمر أو حجاب إن انقطع به))[1].

الملحق(2) :

ورقة تعريفية بالمؤسسة

من نحن: مؤسسة فريد الأنصاري للأبحاث والدراسات مؤسسة علمية تربوية مستقلة تعنى بالقرآن الكريم وبمجموع المشاريع العلمية والتربوية المرتبطة بالمنهج النبوي في تدبر القرآن، وهي إذ تتخذ من الدكتور فريد الأنصاري عنوانا، فذلك تقديرا منها لمشروعه القرآني الملهم، ومحاولته الموفقة في تسطير قواعد التلقي ومبادئ الترقي، إلى جانب مشاريع قرآنية أخرى.

رؤيتنا: العناية بالقرآن الكريم باعتباره مصدر نهضة الأمة ومنبع استلهام مشاريعها.

1- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين: 1/ 119-121.

رسالتنا: الإسهام إلى جانب العديد من المشاريع المعلنة في العالم الإسلامي في تسطير نظرية التلقي والترقي بالقرآن الكريم.

أهدافنا: القيام بالأبحاث والدراسات القرآنية المسهمة في البناء الحضاري للأمة، من خلال:

- الاهتمام بالتراث الفكري للعلماء خاصة أولئك الذين اعتنوا بالقرآن الكريم وعلومه.
- تعميق البحث في التراث الفكري والعلمي للدكتور فريد الأنصاري دراسة ونشرا وتطبيقا.
- إحياء القيم الإنسانية الفاضلة المستلهمة من القرآن الكريم وترسيخ هديها بين الناس.
- إحياء المجالس القرآنية تلاوة وتلقيا وتدبرا وتزكية وارتقاء...
- تأهيل الكفاءات العلمية لإبلاغ هدي القرآن الكريم.

من مشاريعنا:

1- **مشروع مجالس القرآن:** مشروع يهدف إلى إحياء سنة مدارسة القرآن، وعبادة التدبر لآيه، والتخلق بهديه، ونشر علومه، ...

2- **مشروع تيجان القرآن:** مشروع يهدف إلى التعريف بالأعلام، الذين اهتموا بالقرآن الكريم وعلومه ومسالك تفسيره وتدبره، ...

3- **مشروع خدمة التراث:** مشروع يهدف إلى إخراج تراث العلماء الذين برزوا في علوم القرآن الكريم، مستفتحين بتراث الدكتور فريد الأنصاري السمعي والبصري والمكتوب، وبمجموع المشاريع التي سطرها.

4- **مشروع التكوين العلمي:** مشروع يعنى بالتكوين واستكمال التكوين لطلبة العلم وتأهيلهم معرفيا ورساليا...

5- **المشروع الإعلامي:** مشروع يهدف إلى تسخير كل الوسائل الممكنة، الورقية منها، والحديثة (السمعية والبصرية والإلكترونية...).

هذا الكتاب

مضمون هذا الكتيب الذي بين يديك أيها القارئ الكريم، يتحدث عن "اليقظة" باعتبارها منزلة من منازل الايمان، وكونها من أهم المنازل، ومن أرفع المقامات التي وجب على المؤمن أن يدركها وينتبه إليها، فهي أصل السير إلى الله تعالى، وأهم شيء للسالك إليه سبحانه، ولذلك نجد بعض أهل العلم من جعلها من أولى المنازل التي ينبغي البدء بها والاشتغال عليها، لأن الإنسان في حاجة دائمة إليها في سيره إلى الله.

في هذا الكتيب من "سلسلة منازل الايمان"، يأخذنا الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله، في جولة ربانية عجيبة، تبدأ بقصدية اليقظة، ثم يبين لنا علاقتها بالعلم والغربة، ليرشدنا بعد ذلك إلى أهم مسالك هذه المنزلة، وهي التفكر في ملكوت الله تعالى، والتدبر في كلامه سبحانه، ومطالعة نعمه التي لا تعد ولا تحصى، ليكون بذلك قد طرق أبواب القلوب المقفلة، وأيقظها من سباتها، عبر مراتب اليقظة ومسالكها، إننا إذن في رحاب منزلة عظيمة هي "منزلة اليقظة"، وفي ظلال كتيب قيم ومفيد، رغم صغر حجمه، وأمام مؤلّف قدير وعالم جليل، إنه الشيخ فريد الأنصاري عليه رحمة من الله تعالى..